

حوارات نقدية تعصف بالعمى الأيديولوجي في «أطياف فلسفية»

أحمد برقواوي: الحداثوي الهارب من التاريخ الجديد يستعير منطق خطيب الجمعة



يصبح الكاتب بفعل تكرار الكتابة والحضور في عالم القارئ جزءاً لا يتجزأ من مؤلفاته وأفكاره، فلا يُسمح له بالغياب، وتحل كلماته من خلف السطور، ليكتبه المتلقي كما لم يتوقع. وسعياً لجذب المزيد من القراء، يسجن عدد من المؤلفين أنفسهم داخل قفص الأيديولوجيا الجمعية التي ترضي ذوق الجماعة فيما يحققونها المؤلف المكسب الفردي.

بمعناه، كنساء جمع امرأة، والناس لا مفرد له.

والناس يمكن أن يكونوا جماعة أو شعبا أو أمة أو إنسانية، ويمكن أن يكونوا فئة أو طبقة أو نقابة أو حزبا.. إلخ. وعندما نخطب الناس يحدد مضمون الخطاب الناس، سواء أنكرهم أم لم يذكرهم، يتوجه إليهم باختلافاتهم وبتناقضاتهم وصراعاتهم كلها، وتعد أحوالهم.

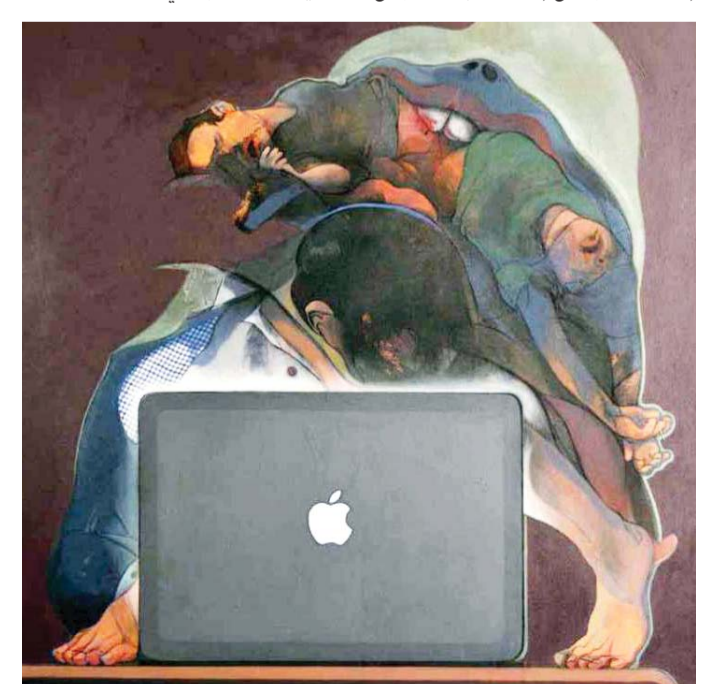
ويشير إلى أنه في اللحظة التي يعلن فيها الكاتب خطابه، فإنه يدخل في علاقة ملتبسة مع الناس، ويخضع لأحكام المتلقي؛ فالكاتب ليس صاحب قرار في تحديد صنف المتلقي، ولا هو قادر على أن يحمل أحدا على القراءة، أو أن يحدد نوع القراءة؛ ولهذا يدخل المتلقي في علاقة حرة مع الكاتب، فيتحول كل من تلقى إلى مقوم للنص، وإن شئت على الكاتب، وإذا ما أراد أن يعظم حكمه يصرح بكل عاقبة، قائلا "يقول الناس".

تتعقد هذه العلاقة بين الكاتب والناس في مرحلة يطلب فيها من الكاتب أن يتخذ موقفا من الناس في مرحلة من مراحل صناعتهم للتاريخ، ومن التاريخ السائر نفسه.

ويتابع برقواوي "أن المؤلف يصبح مسؤولاً ليس عن خطابه فحسب، وإنما عن الناس أيضا. ولهذا صمّت الكاتب وعدم التدخل في شؤون الناس الذين يدخلون في معركة صناعة التاريخ، وعدم احتيازهم إلى صراعاتهم بموقف من أطراف الصراع، وعدم كتابته من وحي العالم المعيش، ذلك كله نوع من الكتابة الصامتة التي يستطيع الناس قراءتها بوصفها موقفا. إن الناس يكتبون النص الذي لم يكتبه المؤلف. فالناس في العالم المتعين صنع تاريخ، يسألون عن كتابتهم، وإذا ما غاب أحد الكتاب المشهورين الفاعلين، فإنهم يسألون: أين هو؟ إن السؤال "أين" سؤال الاستنطاق، أو سؤال احتجاج ودهشة من غيابه، فلنا منهم أن حضوره تحصيل حاصل، وجزء لا يتجزأ من مسوغ وجوده؛ إنهم يسعون ليشاهدوا أنفسهم في عالمه، وإن حصل غاب، فإنهم يصرون عليه حكمهم الذي يصل إلى حد نفيه من الذاكرة، والناس في أحسن أحوال تقويمهم لهذا الغائب يجدون له، إن كانوا يحبونه، عنرا في الخوف من السلطان".

ويرى أنه قد يقال إن هوية الكاتب لا تحيل إلا على ذاته، وانتماء الكاتب هو إلى الكتابة، لكن الكتابة، وهي تحدد هوية الكاتب من دون توقف، تحيل على نظريته إلى العالم وموقفه من الناس، هو الذي يعين السيرة الذاتية لهوية الكاتب في أحوالها كلها؛ سيرة كتابته وانتماؤها، وصورتها في أذهان الناس.

ويوضح برقواوي: ها نحن أمام الناس، وقد حددوا هوية الكاتب والكتابة؛ عموما، لقد قرروا، تلقائيا، معنى الكتابة؛ تأسيسا لمطلبهم من الكاتب والكتابة. نحن أمام قضية الكتابة بوصفها احتيازاً.. الكتابة في علاقتها المعقدة



معرفة زائفة للكذب (لوحة محمد طابا)

محمد الحماصي
كاتب مصري

ما الكتابة؟ ما الناس؟ ما العلاقة بين الكاتب والناس؟ هل تختفي فكرة صوت المؤلف ويعود النص إلى صاحبه، ويصير النص هو المؤلف والمؤلف هو النص؟ كيف يتأتى أن يظهر في عالم الكتابة الكاتب القفص؛ ما الكتابة الغبار؟ ما العلاقة بين إبداع المثقف وموقفه من الحياة.. تساؤلات كثيرة يطرحها ويسعى للإجابة عنها المفكر السوري أحمد برقواوي في كتابه "أطياف فلسفية" متجاوزاً ثقافة الأجوبة التي تعاني من العمى الأيديولوجي ولا ترى ماهية الوجود المعيشي، لا ترى الناس حيث يفرض جملة من المفاهيم، ويحدد تحديدها، ثم يتناول أهم المشكلات الراهنة ويقدم حواراً نقدياً مع فلاسفة ومفكرين.

المتلقي مقوم للنص

يفتح برقواوي كتابه الصادر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود بالقول إن الكتابة ثمرة الكينونة التي تريد أن تحفظ كينونتها متنوعة الحضور، وظهور الكاتب الذي لم يكلفه أحد بالكتابة ظهوره العفوية، وسعيها للحضور، مؤكدا أهمية العودة إلى مفهوم الناس الذي خرج من التداول، تقريبا، في الخطابات العربية المعاصرة، وذلك كي يصبح في الإمكان إعادة قراءة العلاقة بين الكاتب والناس.



أحمد برقواوي

الكاتب ليس صاحب قرار في تحديد صنف المتلقي، ولا هو قادر على أن يحمل أحدا على القراءة

علاقة الكتاب ملتبسة مع الناس

لا يختلف عن الفرح بعودة الإسلام هو الحل، وعصر الخلافة. ويرى برقواوي أن مثقف الغبار يمتطي ظهر الثقافة التي تختفي في حجر الممانعة، كما الثقافة التي تختفي في وكر الجهاد. كلاهما يجمع من النقابات ما يحلو له، ويشيد خطابا صالحا للهرب من أسئلة الحياة والتاريخ والمستقبل الصحيحة؛ فينتصر منطق خطبة الجمعة، القائم على العننة.

زاوية هذا الانتماء التعصبي. وهذا النمط من الأقفاس أسوأ أنواع الأقفاس الأيديولوجية، ومثقف القفص هذا يظهر في حالات الصراعات الهوية، أو التي تترافق بصراعات هوياتية. ويقول برقواوي إن هذه الكتابة أثر فاسد. فالكتابة التي تطايرت في عصر الانحطاط، أو تطايرت في لحظات الهدم التاريخي، غالبا ما تجد طريقها إلى العقل العام. تبدو كتابة الشفاهي اليوم حاضرة في النص الفكري بوصفه غبارا، فالشفاهي المكتوب يظل شفاهيا تماما، شأنه شأن كتابة الرواية الشفاهية

والعننة، بوصفه غطاء يخفي حقيقة الأهداف المستترة التي تجد طريقها إلى تدمير الحياة. إن الغبار الفكري الذي يتطاير، الآن، في فضاء العاصفة التغييرية، يحاول أن يشوه جوهر هذه العاصفة عبر خطاب إسلامي - جهادي وأصولي، من جهة، وخطاب لا يرى في العاصفة إلا حركة إسلامية ضد الحداثة المزعومة.

ويرى "هكذا" يجتمع نمطا الغبار في تحقيق هدف واحد، على الرغم من الاختلاف الشكلي بينهما، ولأول مرة يلتقي الأصولي والحداثوي الزائف في موقف موحد من منطق التاريخ؛ فالبكاء على 'حداثة' عسكرية دمرت حقيقة الحياة والمجتمع، وردت الشعوب إلى حال الاستنقاع الذي ما عاد يطاق،

من شأن الإرادة في تحقيق الفكرة، بمعزل عن فكرة الإمكانية، أما كاتب التاريخ المنهار، كاتب الضمير المنهزم، فيقدم خطابه للناس ممثلثا بالعاطفة الزائفة، وبالحدث عن المؤامرة على الأوطان والدفاع عن المستبدين بوصفهم حماة الديار".

ثوب حداثوي مستعار

يشير برقواوي إلى أنه مع اندلاع الثورات العربية نشأ المعيار الأخلاقي، بوصفه المعيار الذي يقبس علاقة الكاتب بالناس، لقد صار مفهوم الناس وقفا على الناس الذين اندرجوا في حركة التاريخ، وفي ضوء ذلك نشأ الكاتب المصاب بالهزال الأخلاقي، والأخر المتمتع بالوقفة الأخلاقية، ولكن من دون النظر إلى مضمون الخطاب.

ولقد ظهر الكاتب الإسلامي، بوصفه كاتب الغنيمية، وليس كاتب التحول التاريخي، ظهر الكاتب الذي أعلن الشمولية على نحو جديد، الذي يلقي باللائمة على كاتب الحداثة بوصفه مسؤولا ومنهزما معا، وأية ذلك أن أغلب السلطات المستترة قد ليست ثوب الحداثة، واستعارت أشكالها الخارجية في ممارسة قروسطية، فوعدت الشبهة على الكاتب الحداثوي بأنه جزء من هذه الآلة الهمجية، ولكن النسبة الكبرى من كتاب الحداثة العربية الديمقراطيةين والإنسانيين سرعان ما انحازوا إلى الناس بقوة روحية ووعي متجاوز.

ويعاود برقواوي التساؤل كيف يتأتى أن يظهر في عالم الكتابة الكاتب القفص؟ ويقول "القفص، هنا، ليس إلا الأسر داخل قضبان الأيديولوجيا، سواء كانت هذه الأيديولوجيا تعبيراً عن مصلحة شخصية - فردية، أو عن عصبية جماعية ضيقة، أو عن الانتماء إلى فكرة على أنها ذات حقيقة مطلقة".

ويؤكد أن الإقامة في قفص الجماعة الضيقة هي السجن داخل هوية جماعة تحولت إلى هوية فردية موعى بها على نحو تعصبي، وتحول هذا المثقف إلى موقف داخلها ليس إلا، ولا يرى العالم إلا من

ويتابع أن الكاتب، هنا، يستند إلى هوية أيديولوجية متعثرة في التاريخ، لكنها تظل حية لدى جمهور من الناس، يحضر حسن البنا وخالد بكداش وميشيل عفلق، مرة أخرى، بدلا منهم الرمزية، وهم ثلاثتهم قرروا أن يكسروا رأس التاريخ. لقد تشابهوا في الإعلاء

في اللحظة التي يعلن فيها الكاتب خطابه، فإنه يدخل في علاقة ملتبسة مع الناس، ويخضع لأحكام المتلقي

أجل، يستعير الحداثوي الهارب من التاريخ الجديد منطق خطيب الجمعة، ويحشد ما تيسر له من أقوال طغاة الفكر العظماء، من دون أن يقول شيئا صادرا من امتلاك الواقع، وفي مقابله يستمد خطيب الجمعة الديني، هو الآخر، في حشد ما تيسر له من قول مقدس، وشرح المقدس، لتسويغ العودة إلى الفردوس المفقود؛ فتتحول الكتابة، عندئذ، إلى صراع نصوص، ويعلو غبار المعركة الزائفة بين كذب يستمد أسلحته من ماضٍ أثير وكذب يستمد أسلحته الخلبية من ماضٍ غريب، إنها، كما عبر عنها الجابري قبل أن ينكسر راجعا إلى السوراء، نوع من سلفيتين: السلف الإسلامي الصالح والسلف الأوربي.

